مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٧: ٢٦–٢٨؛ ٨: ١و٢)

يا إخوةُ إنَّا يُلائِمنا رئيسُ كهنةٍ مثلُ هذا بارٌّ بلا شرٍّ ولا دَنَسٍ مُتَنَزَّهٌ عنِ الخطأةِ قد صار أعلى من السموات* لا حاجةَ له أن يُقرِّبَ كلَّ يومٍ مثلَ رؤساءِ الكَهَنةِ ذبائحَ عن خطاياهُ أولاً ثمَّ عن خطايا الشعب. لأنَّه قضى هذا مرَّةً واحدةً حين قرَّبَ نفسَهُ* فإنَّ الناموسَ يُقيمُ أُناساً بِهِم الضُّعفُ رؤساءَ كهنةٍ. أمَّا كلِمَةُ القَسَمِ التي بعدَ الناموسِ فتُقيمُ الإبنَ مكمَّلاً إلى الأبد* ورأسُ الكلام هو أنَّ لنا رئيسَ كهنةٍ مثلَ هذا قد جلسَ عن يمينِ عرشِ الجلالِ في السموات* وهو خادِمُ الأقداسِ والمسكِنِ الحقيقيِّ الذي نَصَبَهُ الربُّ لا إنسانٌ.

زكا العشار

في قصة زكا العشار، في إنجيل هذا اليوم، قصة توبة عميقة ورحمة من الله غزيرة، وتلازم الموضوعان في إنجيل القديس لوقا محوري. وإذا قرأنا النص في سياقه، نرى اللقاء مع زكا يلي فوراً شفاء أعمى أريحا الذي «كان جالساً على الطريق يستعطي». الإثنان عرفا المسيح مصدراً للشفاء، من علل الجسد عند الأول ومن أهواء الروح عند الثاني. العطب البشري، مهما تنوّع، مصدره واحد هو السقوط، والشفاء في تنوّع الحالات مصدره واحد، هو المسيح الذي لا يرمّم المعطوب بل يجدّده كلياً. ما يزيد في قصة زكا، ليس فقط أن هذا نال من المسيح أكثر مما طلب، بل أنها تتقدّم بموضوع التوبة والرحمة إلى مستوى قوة وعمق التغيير الذي يحدثه المخلّص في الذين يشتهونه بحق. يسوع الذي يصوّره نصّنا هذا «مجتازاً» في أريحا، أي متنقلاً في أحيائها، يأتي إلى مَن هم، في علمه، محتاجوه لأنه فقط أتى «ليطلب ويخلّص ما قد هلك».

العدد ٤/٢٠٠٩
الأحد ٢٥ كانون الثاني
تذكار أبينا الجليل في القديسين غريغوريوس الثاولوغس (المتكلّم باللاهوت) رئيس أساقفة القسطنطينية
اللحن السابع
إنجيل السَحَر العاشر

مدينة أريحا كانت آنذاك الأكبر والأبرز في اليهودية بعد أورشليم، لها أنشطة تجارية ضخمة مع الممالك المجاورة، وفيها مال كثير. وزكا الذي كان رئيس عشارّيها هو بالتالي رجل ذو نفوذ ومكانة اجتماعية، وعلى الأرجح ذو مال كثير، ولعله ما كان مالاً شريفاً، كحا ل العشارين عموماً. لا شيء في بداية القراءة يشير إلى مستوى زكا الروحي، فقط نعرف أنه «طلب أن يرى يسوع». رغبته هذه، ولأنها كانت حقيقية، فتحت باب خلاصه. الرب هنا ودائماً هو الآتي، هو القادر وهو المبادِر، ولكن تبقى بينه وبيننا حدود إرادتنا. الله هنا، وأنت عليك أن تُقدِم. «مَن يَسمع فليَقُلْ تعالَ، ومَن يَعْطَشْ فليأتِ، ومَنْ يُرِدْ فليأخُذْ ماءَ حياةٍ مجاناً»، يقول سفر الرؤيا (٢٢: ١٧).

قِصَر قامة زكا وكثرة الجموع المحتشدة حالتا بين زكّا ويسوع. يقول آباؤنا القديسون أن ذكر هذين العائقين يتجاوز مجرد التوصيف الروائي، إلى رمزية تُخاطِبُ المتأمل في الإنجيل في أي زمان ومكان. الإنسان منذ سقط بات عالقاً في «لا ترتيب» رغباته، تشابكها وفوضاها،

الإنجيل

(لوقا ١٩: ١–١٠)

في ذلك الزمان فيما يسوعُ مجتازٌ في أريحا إذا برجُلٍ اسمُهُ زكّا كان رئيساً على العشّارين وكان غنيًّا* وكان يلتمِسُ أن يرى يسوعَ مَن هو فلم يكن يستطيعُ من الجمع لأنَّه كان قصيرَ القامة* فتقدَّمَ مسرِعاً وصعِد إلى جميَّزةٍ ليَنْظُرَهُ لأنَّه كان مُزمِعاً أن يجتازَ بها* فلمَّا انتهى يسوعُ إلى الموضعِ رفعَ طَرْفَهُ فرآهُ فقال له يا زكّا أسرِعِ انزِلْ فاليومَ ينبغي لي أن أمكُثَ في بيتك* فأسرعَ ونزَلَ وقَبِلَهُ فرِحاً* فلمَّا رأى الجميعُ ذلك تذمَّروا قائلين إنَّه دخلَ ليَحُلَّ عند رجلٍ خاطئ* فوقف زكّا وقال ليسوعَ هاءنذا يا ربُّ أُعطي المساكينَ نِصْفَ أموالي. وإن كنتُ قد غَبَنْتُ أحداً في شيءٍ أَرُدُّ أربعةَ أضعافٍ* فقال له يسوعُ اليومَ قد حصلَ الخلاصُ لهذا البيتِ لأنَّه هو أيضاً ابنُ إبرهيم* لأنَّ ابنَ البشرِ إنَّما أتى لِيَطْلُبَ ويُخلّص ما قد هلكَ.

وهذا ما يرمز إليه احتشاد الجموع، فقط لأن التمييز هو من المواهب الإلهية الأصل التي أضاعها الإنسان لما انفصل عن اتصاله بالله. الرغبة الأسمى، رغبة الإلتقاء بالمخلّص، ستبقى ضائعة في فوضى الرغبات السطحية (والمسطحة) ما لم يتوافر لدى الإنسان رافعة الإرادة والجهاد. ننتقل إلى قصر القامة. ماذا صنع زكا في حياته، من أعمال بر وإيمان، لكي تنمو قامة روحه فيتأهل للقاء السيد؟ القُصر المقصود هنا هو قُصر قامة الروح وقصور المواهب عند العالقين في رغبات الأرض وهموم اللحظة، بلا حكمة ولا تمييز.

قلنا إن زكا اشتهى أن يرى يسوع، فكانت فاتحة خلاصه. فتسلق الجميزة، الباسقة بأغصانها العالية والقريبة من الأرض بأغصانها السفلى، أي أنه كمّل رغبته بالفعل. الأساس أنه حمل رغبته العميقة وارتقى بها فوق ما سميناه قبلاً فوضى الرغبات. كالعادة، أتى فعل الرب يسوع سبّاقاً فرآه قبل أن يراه زكا نفسه. آباؤنا القديسون رأوا في زكا على الجميزة ثمراً جديداً، رمزاً لثمار الخلاص الوافرة لا سيما وأن الرب يسوع ما أتى إلى الأرض ليزرع بزراً ويجني ثمراً، بل ليزرع في إنسانيتنا بزرة لاهوته فيحصد بشراً بنعمته مخلّصين.

«يا زكا أسرع وانزل». ناداه السيد باسمه، لأنه عرفه. وكما كان سبّاقاً فرآه، ناداه باسمه لأنه يعرف خرافه ويدعوها «بأسماءٍ ويُخرجها» (يو١٠: ٣)، وهو صاحب المبادرة. ومَن هم خرافه؟ هم الذين طلبوه في قلوبهم، بصدق، وباتوا بالتالي قابلين إياه راعياً. «ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك». السيّد سبّاق من جديد. مرة جديدة نرى السائل ينال أكثر مما اشتهى وتمنى. لم يدعُه زكا إلى بيته، بالأحرى لم يُتح له ذلك، لأن السيّد بادره بقوة، بالـ«ينبغي» وبالـ«أمكث». القوة في «ينبغي» تكمن في أنها تحكي تدبير الرب الخلاصي الحاصل في تجسده، وكأنها تعني، «هذه مهمتي، من أجل هذا (خلاصك) أنا أتيت». قوة الـ«ينبغي» هي أيضاً قوة ما عند السيد لنا من حبّ. هي القوة التي دفعت بالإله الذي «كلُّ شيءٍ به كان وبغيرِهِ لم يكُنْ شيءٌ مِمَّا كان» (يو ١: ٣) إلى النزول من أعالي مجده إلى أسافل مأساتنا. أما الـ«أمكث» فلأن الرب لم يأتِ ليمر عابراً بل «ليمكث».

هل كان ممكناً، بعد كل هذا، أن لا ينزل زكا إلى يسوع بسرعة وفرح؟ لا يمكن لمن يلتقي رحمة الله أن لا يقبلها بفرح عظيم. المؤمن الحقيقي يفرح بالصلاة لأنه يعي أنه يجالس الله، الذي سوف يجلس إليه في اليوم الأخير الأبرار والصديقون، الذين يقدّسون الله يفرحون ملء الفرح أمام الكأس المقدسة، لأنهم يعون أنهم سوف يحوون، بتناولهم الجسد والدم الإلهيين، الذي لا تحويه أرض ولا سماء. إنها فرحة التائب الذي وإن كان عارفاً بإثمه يهرع إلى الله لأنه يثق بفيض رحمته.

الناس تذمّروا من زكا «الخاطئ»، وبالأكثر من يسوع كيف أنه أتى ليبيت عنده، فقط لأنهم ليسوا تائبين. هذا هو الفرق، ولعله الوحيد، بينهم وبين زكا. فهو في عطائه المادي وفي تعويضاته يفوق ما أمر به الشرع الموسوي، وحتى أحكام القانون المدني الروماني آنذاك. هم يتذمرون لأن

تأمل

يا له من عشق آلهي! يا لها من شهوة مباركة! يا له من عشق مجنّح بالذهب أو بالأحرى بالمسيح الذي يُصعد إلى السماء كل نفس تشتهيه. إن العشق الإلهي الذي رفعه عن الأرض دفعه ليصعد على الشجرة. لم يدعه يتطلّع بعد ذلك إلى أمور الأرض ولا أن يخالط البشر. إن المحبة الإلهية هي التي أدارت أنظاره إلى الخيرات السماوية. فهو يركض من الأرضيات إلى السماويات فيرتفع على الشجرة ويشاهد المسيح من هناك وهو بالذهن جالس على السحب.

وعندما رأى زكّا الرب قال له بما يليق به: إني رفعت عينيّ إليك يا ساكن السماء. رأى زكّا الرب وازداد فرحه. لقد مسّ قلبه فأصبح إنساناً آخر. من عشار تحوّل إلى غيور، من ملحد إلى مؤمن، من ذئب إلى خروف مُعَدّ للذبح. مَنْ يشعر بمثل هذا الشوق لأبيه ولأمه؟ مَن الذي أحب إمرأته أو أولاده كما أحب زكّا الرب حسبما تظهره الوقائع نفسها. لقد وزّع أمواله على الفقراء وأعطى الذين ظلمهم أربعة أضعاف.

يا له من تصرّف يليق بالتلميذ الصالح! ... يا لها من قوّة إلهية: إن رؤية خلاص هذا الإنسان لا يعنيهم، لأن المحبة كما أوصى بها الله لا تعنيهم. الرب يسوع لا يقرف من مجالسة خاطئ تائب، لأن الطبيب لا يقرف من جروح مريضه. الرب يسوع يعنيه خلاص هذا الإنسان، لأنه من أجل هذا أتى، والخلاص نفسه متاح للمتذمرين أيضاً، فقط إن هم تابوا وأحبّوا. هذا الإنسان الذي «هو أيضاً ابن إبراهيم»، وبتعبير أبسط تقدم بطلب الإنتماء إلى هوية المؤمنين، فقُبل طلبُه لما ناداه السيد باسمه. ولما دخل بيته وجلس إلى مائدته، منح الرب يسوع زكا الهوية علانية. اليوم حصل الخلاص لزكا لأنه اليوم رغب فأقدم، فكان له أكثر مما طلب بكثير. في الأساس طلب علاجاً موضعياً، أن يرى السيد، فكان له الشفاء التام، أن يمكث السيد عنده. زكا العشار اشتهى أن يلتقي الرب، أدرك ضعفه ومعوقاته، تعالى عليها كلها وعلى ذاته، فعرفه الرب وصار عنده ساكناً. هذه هي التوبة وهكذا فقط تكون.

رسالة يعقوب: الغنى

يتوجه الرسول يعقوب في بداية الإصحاح الخامس من رسالته إلى الأغنياء المكتفين بأموالهم التي جمعوها بتعب عمّالهم والفقراء ليقول لهم ان الدينونة قريبة، وكل ظلم يجرّ وراءه انتقام الله وعقابه. يهز يعقوب ضمائرهم، فمجيء الرب قريب وعلى الأبواب، وآخرة كل واحد قريبة.

يقول: «هلمَّ الآن أيها الأغنياءُ ابكوا مُوَلولينَ على شقاوَتِكُمُ القادمةِ. غِناكم قد تهرَّأ وثيابُكم قد أكلها العُثُّ. ذهبُكُم وفِضَّتُكم قد صَدِئا وصَدَأُهما يكونُ شهادةً عليكم ويأكُلُ لُحومَكم كنار. قد كَنَزْتُم في الأيامِ الأخيرةِ» (يعـ ٥: ١-٣). يدعو يعقوب الأغنياء أن يبدأوا منذ الآن البكاء على الشقاء الآتي عليهم بسبب قساوة قلوبهم واتكالهم على أموالهم لا على الله. فالغنى والمال الذي يتَّكلون عليه الآن ويستمدون منه السلطان سوف لن ينفعهم يوم الدينونة، بل سيكون مصدر شقاوتهم لأنهم ما عرفوا كيف يكونون أمناء على الوزنات التي وضعها الله بين أيديهم ولم يمدّوا يدهم لمساعدة الفقراء، بل «وأكلوا» تعب عمّالهم. الثياب الفاخرة التي يتباهون بها سوف يأكلها العث، والفضة والذهب اللذان هما من أغلى المعادن ويتزين بهما الأغنياء سوف يفقدان لمعانهما مع الوقت، بل يأكلهما الصدأ حيث نخبئهما تحت الأرض. صدأ هذه الأموال المخزونة هي التي ستشهد ضدنا يوم الحساب لأننا أغلقنا قلبنا وأيدينا عن معونة المحتاجين. هذا الصدأ عليها سوف يكون كالنار تأكل لحومنا يوم الدينونة. المال المكدس بالظلم والمستعمل بأنانية يدمر الإنسان ولا يبنيه، وسوف يكون الوقود الذي يلهب النار التي سيُرمى فيها. لقد علّمنا الرب أن لا نكنز «كنوزاً على الأرض حيث يُفسِدُ السُّوسُ والصَّدأُ وحيثُ ينقُبُ السَّارِقونَ ويسرِقونَ. بل اكنِزوا لكم كنوزاً في السماءِ حيثُ لا يفسِدُ سوسٌ ولا صَدَأٌ وحيثُ لا ينقُبُ سارِقونَ ولا يسرِقونَ. لأنَّه حيث يكونُ كنزُكَ هُناكَ يكونُ قلبُكَ أيضاً» (مت ٦: ١٩-٢١). لذا فإن الرسول يعقوب يدعو الأغنياء أن يبكوا مولولين منذ الآن لأنهم كانوا يكنزون هنا على الأرض وليس في

يسوع وحدَها قادته إلى الفعل. لم يعط الرب لزكا أي تعليم. حضر أمامه فاجتذب الإيمانُ قلبه إلى الذي كان يشتاق إليه. لقد حصل أمر مشابه لنازفة الدم. اقتربت من الرب وطلبت منه الشفاء. لم يقبل أن تلمسه بيدها. فجاءت خفية ولمست هدب ثوبه فجذبتها قوة الشفاء من اللمس كالاسفنجة. لم يكن زكا يدرك ماذا يفعل إذ انه كان مسوقاً بالغيرة الإلهية، ملتهباً بالعشق الإلهي الروحي فصعد على الجمّيزة.

لكن الرب كشف له سراً وطلب منه أن ينزل. عرف أعماق نفسه. عرف شوقه المقدّس. إنزلْ! تذكر آدم الذي عندما شعر بعريه اختبأ وراء شجرة التين. وأنت الذي تريد الخلاص لا تصعد على الجمّيزة. ينبغي لي أن أصيّرها يابسة وأزرع غيرها أي الصليب. تلك هي الشجرة المباركة (أي شجرة الصليب) وعليك أن تقود قدميك إليها. تلك هي التي تقود مباشرة إلى السماء... أنت خروفي الضال وعنك أبحث. إنزل بسرعة وانتظرني في بيتك. ينبغي لي أن أستريح فيه. إني أستريح حيث يوجد إيمان. أذهبُ حيث المحبة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

السماء. يقول لهم كان عليكم الاستعداد منذ الآن لكنكم «قد كَنَزتم في الأيامِ الأخيرة» (يع ٥:٣). الغنى سوف يفنى ولن يأخذ الإنسان معه شيئاً إلاّ أعماله الصالحة، وبحسب ما كَنَزَ يكون حسابه.

بعدها يوضح يعقوب سبب كلامه القاسي، فهؤلاء الأغنياء الذين نتحدث عنهم قد أكلوا معيشة عمّالهم وسرقوا أموالهم: «هوذا أُجْرَةُ الفَعَلَةِ الذينَ حصدوا حقولَكم المَبْخُوسَة (تلك التي بخستموهم إياها) منكم تصرُخُ وصِياحُ الحصَّادينَ قد دخلَ إلى أُذُنَيْ ربِّ الجُنودِ. قد تَرَفَّهتم على الأرض وتنعَّمتُم وربَّيتُم قلوبكم كما في يومِ الذَّبحِ. حَكَمتُم على البارِّ. قَتَلتُموه لا يُقاوِمكم» (يع٥:٤-٥). حبُّ الإقتناء يُفقد الإنسان رحمته بأخيه بل يدفعه إلى ظلم الأجير. لكن تعليم الكتاب المقدس منذ القديم عندما أعطى الله موسى الشريعة التي يجب أن يسير عليها الشعب، هذا التعليم حذّر من ظلم العمال في أجرتهم: «لا تظْلِمْ أجيراً مِسكيناً وفقيراً من إخوتِكَ أو من الغرباءِ الذينَ في أرضِكَ في أبوابِكَ. في يومِهِ تُعْطيهِ أُجْرَتَهُ ولا تغرُبْ عليها الشَّمسُ لأنَّه فقيرٌ وإليها حامِلٌ نفسَهُ لِئلاَّ يصرُخَ عليك إلى الرَّبِّ فتكونَ عليكَ خطيئةٌ» (تث٢٤: ١٤-١٥). إن الأجرة التي حُرم منها العامل لها صوت يصرخ إلى الرب مثل دم هابيل، الذي قتله أخوه، وهو يطلب في السماء الإنتقام (تك ٤: ١٠). كما ان يشوع ابن سيراخ في كتاب حكمه يساوي بين مَن حَرَم الأجير أُجرته والقَتَلَة، لأن العامل ينتظر أجرته آخر النهار ليُطعم أولاده، وإذا لم يقبض أُجرته يجوع أولاده ويموتون. وبالتالي فإن الله لن يقبل ذبيحة من ظلمهم لأنها مجبولة بدم الأبرياء: «مَن قدّم ذبيحةً من مال المساكين فهو كمن يذبح الإبن أمام أبيه. خبزُ الفقراء حياتهم. مَن منعهم إياه فهو سافك دم. مَن يَسلبُ قوتَ الآخر يقتلْه ومَن يحرم الأجير أُجرتَه يسفكْ دمَه» (ابن سيراخ ٣٤: ٢٠-٢٢).

إلا ان صراخ المظلومين يسمعه «رب الجنود» كما يقول يعقوب. واستعمال عبارة «رب الجنود» بدل من استعمال كلمة «الرب» أو «الله» أو غيرها، هي لتعزية المساكين والقول لهم ان الرب القوي الجبار سوف ينتقم لهم في «يوم الذبح» أي يوم الدينونة. وهكذا يحذر يعقوب الأغنياء، كما في مَثَل ألعازر والغني (لوقا ١٦: ١٩-٣١)، انهم يترفهون الآن ويتنعمون على حساب الفقراء ولكنهم سوف يلقون العقاب المناسب في يوم الدينونة حين ستكون نهايتهم بائسة وتعيسة. العقاب الذي سينالونه هو بسبب نقص المحبة في قلوبهم، و«مَنْ لا يُحبَّ أخاهُ يبقَ في الموت. كُلُّ مَنْ يُبغِضُ أخاهُ فهو قاتِلُ نَفْس. وأنتم تعلَمونَ أنَّ كُلَّ قاتِلِ نفسٍ ليس له حياةٌ أبديَّةٌ ثابِتَةٌ فيه» (١ يو ٣: ١٤-١٥).بناء على كل ما ورد أعلاه يقول يعقوب للظالمين: «حَكَمتُم على البارِّ. قتلتُموهُ. لا يُقاوِمُكم» (يع ٥: ٦). كلام يعقوب موجّه إلى كل واحد منا يعيش أسير مقتنياته ويظلم مَن حوله ويأكل معيشة المساكين، فَرَبُّ الجنود قادم ليجري العدل السماوي الذي لا محاباة

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb